البناء
السنة الثامنة / الثلاثاء / 12 تموز 2016 / العدد 2124
Eighth year / Tuesday / 12 July 2016 / Issue No. 2124

الهجمات الانتحارية في العراق: أين المشكلة؟

■ حميدي العبدالله

في أكثر الهجمات الدموية استهدف حي الكرادة بهجوم إرهابي فظيع ذهب ضحيته العشرات من المواطنين الأبرياء الذين لا ذنب لهم وليسوا طرفاً في الصراع الدائر في العراق، جريمتهم الوحيدة أنهم يكدّون ليلاً نهاراً لتحصيل مصادر رزقهم، وبعد ذلك بساعات قليلة استهدفت بلد بهجوم مماثل.

التصريحات الرسمية العراقية أشارت في الدرجة الأولى إلى أنّ هذه الهجمات جاءت رداً على هزائم داعش في مواجهة الجيش العراقي وقوات الحشد الشعبي في المعارك التي تخاض وجهاً لوجه، وهذا الهجوم جاء بعد الهزيمة المدوية لداعش في الفلوجة. هذا صحيح. ولكن هذا ليس هو الهجوم الأول لداعش ولم يكتشف المسؤولون البارود عندما يقولون إنّ هجمات داعش تأتي رداً على هزائمها في الميادين. منذ أكثر من ست سنوات تشنّ هجمات انتحارية على الأحياء الآمنة في بغداد، وليست هذه هي المرة الأولى ولا العاشرة ولا حتى المئة، فلماذا لم تتمكّن السلطات العراقية من تأمين العاصمة وأحيائها المختلفة؟

لا يمكن لأيّ وضع في العراق تبرير عجز الحكومات العراقية المتعاقبة عن حماية المدنيين، سوى الفساد واللامسؤولية، والاكتفاء بتأمين المنطقة الخضراء حيث تعيش أسر المسؤولين العراقيين منذ الاحتلال الأميركي للعراق.

مهما كان الوضع في محيط بغداد فهو ليس أكثر سوءاً من الوضع في محيط دمشق، فلماذا استطاعت السلطات السورية توفير الأمن لسكان مدينة دمشق أكثر من ثلاث سنوات، وفشلت السلطات العراقية في تحقيق الأمن في مدينة بغداد. دمشق محاطة بالإرهابيين من كلّ الاتجاهات. في غرب المدينة تتواجد النصرة وداعش في قدسيا ووادي بردى ومحيط خان الشيح، وفي الجنوب داريا والتضامن ومخيم اليرموك والحجر الأسود، وفي شرق دمشق حي جوبر، وعلى الرغم من أنّ الإرهابيين يرابطون في مواقع أقرب الأماكن الآهلة والآمنة في دمشق، إلا أنهم عجزوا منذ عام 2013 عن القيام بأيّ أعمال تفجير كبيرة نتيجة لإجراءات السلطات الأمنية في سورية، فلماذا تعجز الجهات الأمنية في بغداد، على الرغم من أنّ ظروفها أفضل بكثير من ناحية تواجد الإرهابيين عن حماية بغداد والأحياء الآهلة.

المشكلة هي في السلطة، المشكلة في الفساد المستشري، المشكلة في عدم اهتمام المسؤولين بهذه القضية طالما أنّ أسرهم مؤمّنة في المنطقة الخضراء.

الملاح وميدعا وداريا

- تشهد جبهات القتال السورية وقائع وكلاماً كثيراً، والكلام الكثير عبر قنوات مموّلة من السعودية وقطر يحاول أن يطغى على الوقائع فيتحدّث عن هجوم هنا ومعركة هناك واقتحام وتفجير هنالك، وكلها يعوزها التأكيد، ودائماً في الإعلام الحربي بين طرفين متقاتلين الحقائق تقولها الجغرافيا.
- الجغرافيا في ميادين القتال تقول شيئاً مكرّراً من كل الجبهات، ففي درايا في دمشق يعترف مشغلو الجماعات المسلحة بأنّ الجيش السوري نجح في تحقيق تقدّم نوعي هامّ ومؤثر، وأنّ الجماعات المسلحة أصيبت بخسائر بالغة.
- الجغرافيا تقول إنّ ميدعا البلدة الاستراتيجية في غوطة دمشق قد صارت بيد الجيش السوري، وانّ خطوط الإمداد التي تعتمد عليها الجماعات المسلحة في الغوطة قد تمّ إقفالها وصارت هذه الجماعات تحت الحصار.
- الجغرافيا تقول انّ منطقة الملاح في شمال حلب تشكل بوابة ومعبر الأحياء الشرقية للمدينة التي يسيطر عليها المسلحون، انها صارت بيد الجيش السوري وحلفائه، وأنّ مخيم حندرات صار محاصراً، وأنّ محاولات فكّ الحصار واسترداد الملاح فشلت ونجم عنها سقوط مئات القتلى من المسلحين.
- الميدان السوري يقول إنّ الجيش السوري ينتصر.

التعليق السياسي

انفجار كرادة: قنبلة فراغية أم «سي4 + أمونيا»؟

■ ميشيل حنا الحاج*

تفجيرات عدة نفذت في الأيام الأخيرة من رمضان، فقد شملت تفجيراً في مطار اسطنبول، وعملية في دكا، وتفجيراً في حي الكرادة في بغداد، ثم ثلاث هجمات متلازمة في السعودية شملت جدة والقطيف والمدينة المنورة... لكن التفجير في حيّ الكرادة، كان أبشعها وأبلغها ضرراً من حيث عدد الضحايا، بحيث يتوقع البعض على ضوء مشاهدتهم للموقع، أنّ عدد الضحايا سيبلغ في نهاية الأمر رقماً مذهلاً، وتتكتم السلطات العراقية عليه خوفاً من ردّ الفعل الشعبي المتوقع أن يكون قوياً جداً. وقد ذهب البعض الى حدّ تشبيه مجزرة الكرادة، بمجزرة ملجأ العامرية خلال حرب عام 1991.

فالرقم الأولي للضحايا كان بحدود 120 قتيلاً، وسرعان ما ارتفع في اليوم الثاني ليبلغ 165، ومن ثم في اليوم الثالث الى 250 ضحية، مع وجود معلومات لدى البعض، مصادرها من بغداد، وتفيد بأنّ 81 جثة موجودة الآن في المشرحة ولم يتمّ احصاؤها بعد، مما يرجح معها احتمال أن يرتفع الرقم ليتجاوز 330 ضحية. ومع ذلك يتوقع بعض المراقبين ومنهم السياسي العراقي المستقلّ الدكتور أحمد الأبيض، أن يرتفع الرقم كثيراً في وقت لاحق، مرجّحاً استناداً لمصادره في بغداد، احتمال وصوله الى 800 قتيل انْ لم يكن أكثر، علماً أنّ هذه كلها أرقام غير مؤكدة، ومجرد تكهّنات وترجيحات تستند الى مدى الضرر الذي لحق بالمبنى وبالمنطقة.

فالدكتور أحمد الأبيض الذي حصل على درجة الدكتوراه في دراسته المتخصّصة في المواد الكيماوية، يرجح أنّ المادة المستخدمة في التفجير، كانت مادّة من مواد ربما تنتمي إلى عائلة أسلحة الدمار الشامل، ولم تكن مجرد متفجرات عادية، والا لما كانت قد الحقت هذا العدد الكبير من الضحايا، ولما تسبّبت بهذا الحجم الضخم جداً من الدمار.

والواقع أنّ دراسة عمليات التفجير السابقة في العراق خلال هذا العام فحسب، أيّ منذ بدايته والى ما قبل تفجير الكرادة، وعددها 6 هجمات تفجيرية... يلاحظ أنّ مجموع ضحاياها كانوا 342 ضحية موزعين كالآتي:

1 ـ تفجيران في مدينة الصدر نفذا في 28 شباط، وتسبّبا بوقوع 70 ضحية.

2 ـ تفجيران في مدينة الحلة نفذا في 6 آذار وتسبّبا بمقتل 47 شخصا.

3 ـ تفجير سيارتين في الأول من أيار في مدينة سماوة، تسبّبا بمقتل 33 عراقياً.

4 ـ تفجير سيارة في مدينة الصدر في 11 أيار تسبّبت بمقتل 93 ضحية.

5 ـ أربع تفجيرات في عدة مناطق شيعية في 17 أيار سقط نتيجتها 69 قتيلاً.

6 ـ تفجير آخر وأخير في بغداد، نفذ في 9 حزيران (أيّ مع بدايات شهر رمضان) وسقط نتيجته 30 قتيلاً، مما يرفع مجموع ضحايا التفجيرات منذ أول العام الى ما قبل التفجير الكبير والأخير في الكرادة، الى 342 ضحية كما سبق وذكرت، وهو رقم قد يضاهيه مجموع ضحايا هذا التفجير الأخير، بعد الإعلان رسمياً عن مقتل 250، وتسرّب أخبار من موظفي المشرحة في بغداد عن وجود 81 قتيلاً آخر لم يعلن عنهم بعد، إضافة الى وجود عدد كبير من الجرحى المصابين بإصابات بليغة، والذين قد لا ينجون بسبب ما أصابهم من جراح بليغة. اضافة الى ترجيحات البعض بأن العدد النهائي للضحايا في رقمه النهائي قد يكون مذهلاً فعلاً.

فإذا لاحظنا أنّ أبشع رقم حصده تفجير واحد خلال الشهور السابقة من هذا العام، وهو أضخم تلك التفجيرات، أيّ التفجير الذي شهدته مدينة الصدر، قد حصد 93 ضحية... يضطر المراقب إزاء ذلك الى التساؤل عن السبب في تميّز تفجير الكرادة الذي وقع عشية عيد الفطر، بهذا الرقم الكبير من الضحايا الذي قد يعادل عدد الضحايا الذين سقطوا نتيجة كلّ التفجيرات مجتمعة والتي نفذت في الشهور الستة الأولى من هذا العام. بل وقد يفوقه كثيراً في الإحصاء النهائي، كما يقدر البعض.

ويعترف بيان وزارة الداخلية العراقية، أنّ السيارة التي فجرت في مبنى الكرادة، قد مرّت على ثمانين نقطة تفتيش قبل وصولها الى بغداد لتتوقف أخيراً في الكرادة... كما قال بيان وزارة الداخلية العراقية، دون أن تكتشف أجهزة الأمن والتدقيق حمولة هذه السيارة. فهل كان ذلك صحيحاً؟ هل مرّت فعلاً على ثمانين نقطة تفتيش ولم يعثر على أيّ شيء غريب في حمولتها؟ أم أنّ السيارة (المفخخة كما يفترض)، لم تحمل فعلاً أياً من المتفجرات، وأن ذلك كان السبب الحقيقي لعدم اكتشاف شيء غريب في حمولتها. وقد دمّرت السيارة بعد ذلك، لا بسبب تفجير حمولتها، بل نتيجة التدمير الذي لحق بالمبنى الذي فجر بوسائل أخرى، وكانت السيارة تقف امامه أو قربه.

وافترض البعض ممن اعتقدوا باستخدام سلاح جديد مختلف في تفجير الكرادة، أنّ السلاح المستخدم هذه المرة، له قوة وفعالية أسلحة الدمار الشامل. وذهب البعض في تكهّناته، الى حدّ التردّد بين استخدام سلاح قوي ذي صبغة كيماوية كسلاح أسموه «سي4 + أمونيا»، وبين القول باستخدام قنبلة فراغية في ذاك التفجير. ولكن خبرة سابقة لي مع قنبلة فراغية ألقيت في بيروت، جعلتني أستبعد فوراً هذا الاحتمال.

فالقنبلة الفراغية تلقى من طائرة ولا تفجر على الأرض. وهذا أمر مستبعد في حالتنا هذه، وخصوصاً اذا كان المنفذ فعلاً هم إرهابيو الدولة الاسلامية ـ داعش. والقنبلة الفراغية تحدث ثقباً في المبنى لتدخل منه وتقتل كلّ من بداخله. لكن القتلى عندئذ، لا يشعرون قط بما لحق بهم. فلا جثث محترقة، ولا أشلاء مقطعة الأوصال ومتناثرة، كما حدث في تفجير الكرادة. بل ما تشاهده من معالم على الضحايا هو كونهم في حالة سبات عميق وكأنهم توفوا وهم نائمون. وتحدث الوفاة عندئذ نتيجة قيام القنبلة الفراغية، بتفريغ المنطقة المستهدفة من الهواء وما فيه من أوكسجين، (ولذا سمّيت بالقنبلة الفراغية) فيلقى الضحية حتفه مختنقاً دون وجود آثار لجراح، أو احتراق.

وقد شهدت بنفسي قبل عدة أعوام، آثار قنبلة فراغية القيت على أحد المباني في حي الصنائع في بيروت، وذلك خلال مرحلة الحرب الأهلية في لبنان، عندما غزت «إسرائيل» لبنان عام 1982 متدخلة في الحرب الأهلية بشكل مباشر، سعياً منها لوضع حدّ للتنامي المتزايد لقوة المقاومة الفلسطينية في لبنان. وكانت «إسرائيل» تقدّر أنّ إنهاء الحرب، أو اختصار حاجتها للمضيّ قدماً بعملية الغزو، تقتضي تصفية الرئيس المرحوم ياسر عرفات. ولذا كانت تراقب خطواته خطوة خطوة محاولة اصطياده.

لكن الرئيس الراحل كان أذكى، ولذا كان يبدّل المواقع التي يعقد فيها اجتماعاته مع قادته ومستشاريه. بل وكان يفترض دائماً احتمال تواجد جاسوس لـ«إسرائيل» في الموقع الذي يعقد الاجتماع فيه، كأن يكون حارس المبنى، أو أحدهم يقيم في مبنى مجاور. وكان يقدر بأنّ الجاسوس سيحتاج الى بعض الوقت ليبلغ موساد تل أبيب بتواجد عرفات في موقع كذا، ويحتاج أولئك لبضع دقائق ليحصلوا على موافقة رئيس الوزراء بالإغارة على الموقع، ومن ثم لوقت اضافي آخر لإصدار الأمر للطائرات بالاقلاع، ومن ثم لتصل تلك الطائرات الى موقع الهدف. مستعيناً بهذا التقدير، كان المرحوم عرفات يتعمّد عدم البقاء في موقع ما (غير موقع قيادته الأكثر تحصيناً والذي كان أيضاً يبدّله باستمرار)، مدة قد لا تصل الى الساعة الكاملة ولكن لا تتجاوزها، وهو الوقت الذي قد يكون كافياً للنجاح باستهدافه. وهذا ما حصل فعلاً في صيف عام 1982 عندما عقد اجتماع سري في أحد المباني الواقعة في منطقة الصنائع، وغير البعيد جداً عن شارع الحمراء المعروف في بيروت. فهو بعد أن أمضى ساعة في الاجتماع، وربما أقل، ركب سيارته وانطلق بموكبه عائداً الى حي الفاكهاني.

وكنت واقفاً يومئذ في نافذة مكتب وكالة الأنباء التلفزيونية «دبليو تي أن» التي أعمل مديراً لها. وكان المكتب في مبنى صحيفة «النهار» المتواجد في بداية شارع الحمراء. وهنا حدثت مفاجأتان: الأولى مشاهدة موكب ياسر عرفات يطلّ علينا فجأة آتياً من منطقة الصنائع، ويمرّ بمقهى الهورس شو، ثم يدخل موكبه يساراً نحو شارع الحمراء. ولكن بمجرد دخول موكب الرئيس شارع الحمراء، وقعت المفاجأة الثانية والمتمثلة بدويّ انفجار كبير في مبنى غير بعيد عن ناظري ونظرات زملائي الذين كانوا قربي.

بطبيعة الحال عجل المصوّرون بالذهاب فوراً الى موقع الانفجار، ليعودوا اليّ بعد أقلّ من ساعة حاملين شريطاً مذهلاً في بشاعته. كان يتضمّن صوراً لعدد كبير من الموتى، اما نائمين في أسرتهم، أو جالسين على مقاعدهم. وجميعهم قضوا نحبهم صامتين وبدون آثار حروق أو جروح على أجسادهم. وألمح بعض سكان الجوار أنّ عرفات كان في المبنى لبعض الوقت، كما كتب لاحقاً الصحافيون والمحللون بأنّ «إسرائيل» قد استخدمت في هذه الإغارة، قنبلة أطلق عليها اسم «القنبلة الفراغية».

واستناداً لتجربتي هذه، خصوصاً وقد انتقلت عندئذ على عجل الى المبنى المصاب بالقنبلة الفراغية، وشاهدت بنفسي المتوفين الذين لم يكن قد تمّ نقلهم بعد، والنهج الذي أدّى لوفاتهم، فقد استبعدت تماماً الطرح القائل باحتمال كون قنبلة فراغية قد ألقيت على المبنى في الكرادة، رغم بقاء الملاحظة الواضحة والصارخة بتميّز هذه الهجمة بالذات، بعدد ضحاياها وبمدى دمارها، عن التفجيرات الستة السابقة التي شهدتها بغداد ومدن عراقية أخرى منذ بداية العام، والى ما قبل تفجير الكرادة.

ولكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث فعلاً في الكرادة؟ أي نوع من السلاح قد استخدم ليحصد هذا العدد الكبير من الضحايا، وهل نقل السلاح أو المادة المتفجرة.. المتميّزة (كما يبدو) عما اعتادت الدولة الاسلامية ـ داعش استخدامه، في تلك السيارة التي مرّت على 80 حاجز ولم يكتشف ما فيها من محتويات، أم وصل السلاح المتفجر الى المبنى بوسيلة أخرى؟ وما هو نوع هذا السلاح المتميّز الذي حصد الكثير من الضحايا؟ وطالما أنّ القنبلة الفراغية التي افترضت من البعض قد استبعدت، فهل استخدم حقاً، كما قال خبراء في هذا الشان، ذاك السلاح الغريب المسمّى «سي4 + أمونيا»، المجهول بالنسبة لي وللكثيرين؟ أم هناك سلاح ثالث له فعالية متميّزة في قدرتها على التدمير والقتل، بشكل أبشع من ذي قبل، ويختلف عما اعتدناه في جرائم التفجير التي ارتكبها داعش سابقاً؟

لا أريد الذهاب مع القائلين بأنه تركيب من مزيج كيماوي، كما قدّر بثقة كبيرة، خبير متخصص بهذا النوع من المواد الكيماوية، مفضلاً الانتظار حتى يكشف التحقيق لنا غموض ما حدث في الكرادة، وأسباب تميّز هذا التفجير بارتفاع نادر بعدد ضحاياه، اضافة الى قدرته على المرور، ان كان قد جاء فعلاً بتلك السيارة أو الشاحنة، عبر ثمانين نقطة تفتيش بدون اكتشافه.

ولو صحّ استخدام سلاح متميّز في هذه المرة، فانه يفترض بكلّ التحالفات المقامة، والذين يدّعون بأنّ مهمتهم مقاتلة داعش واغتيالها، أن يفكروا ملياً، ويبحثوا عن وسائل أنجع في مقاتلتها، لأنّ مقاتلتها بهذا النهج العقيم البطيء وغير الجدّي، قد يؤدّي بالمنطقة، بل بالعالم كله الى الهلاك، مع وجود قدرات هائلة لدى الدولة الاسلامية ـ داعش، سواء على صعيد التطوير العلمي، أو التخطيط الاستراتيجي الذي شكل بسلسلة التفجيرات الأخيرة في مناطق متعدّدة من العالم، رداً واضحاً بأنّ كلّ هزائمه على الأرض، سواء بالفلوجة أو في شمال سورية بما فيها محاصرة منبج، لا تعني الكثير له، وأنه قادر على ان يهاجم مباغتاً من الخلف، وان عجز، أن يستخدم سلاح التفجير الذي ربما طوّره بشكل أراد أن يفاجئ الجميع به، ولعلّ تفجير الكرادة بنوعيته المتميّزة ولو الى حدّ ما، كانت رسالة إنذار قد تكون الأولى، لكنها قد لا تكون الأخيرة.

* مستشار في المركز الأوروبي العربي لمكافحة الارهاب ـ برلين.
عضو في مركز الحوار العربي الأميركي ـ واشنطن.

الجمعيات الخيرية ليست إغاثية لكنها شريك أساسي في تنمية المجتمع

■ د. محمد شعيتاني*

انّ المؤسسات الخيرية ومنظمات المجتمع المدني ليست إغاثية فقط.. لكنها شريك أساسي في تنمية المجتمع، وهذا الأمر يكون من خلال الإجابة عن السؤالين: ماذا ينتظر المجتمع من الجمعيات الخيرية؟ وما هي الحاجات والمطالب التي يريدها؟

لكي يقوم القطاع الخيري بدوره في المجتمع وتلبية احتياجات المعوزين والمحتاجين لا بدّ أن يتواصل مع المجتمع ويطوّر نفسه، وأن ترتكز إدارة العمل الخيري على مفاهيم أساسية لا تختلف في الأصل عن إدارة أيّ عمل آخر، سوى في بعض التطبيقات، لأنّ العمل الخيري يرتبط بالمجتمع، ولذلك تتعيّن المبادرة في تطوير مؤسساتها وأنظمتها الخيرية وتأهيل العاملين بها، وصناعة عملنا الخيري، ومن هذا المنطلق يتعيّن على المؤسسات الحكومية والخيرية العمل باستراتيجية متكاملة ووضع الأهداف المشتركة لتحقيق المصلحة للمستفيدين وللدولة وللمؤسسات الخيرية نفسها ليتمكن المجتمع من نفع بعضه بعضاً، وتخفيف الاعتماد على الدولة في كلّ شيء من خلال بناء ودعم صناعة العمل الخيري. وهناك دراسة أجريت بعنوان «الحاجات والمطالب التي ينتظرها المجتمع من المؤسسات الخيرية» والتي استهدفت استجلاء طبيعة المطالب والاحتياجات التي يتطلع افراد المجتمع اليها من الجمعيات الخيرية، سواء كانت احتياجات نفسية أو تعلمية أو إغاثية.

وأظهرت الدراسة أنّ أغلبية الذين شملتهم يطالبون المؤسسات الخيرية بالعناية الخاصة بالرعاية والتوعية والتوجيه للأفراد في الجوانب الدينية والإجتماعية والصحية والتربوية، وكانت هذه أول المطالب التي يطالب بها من شملتهم الدراسة من الجمعيات الخيرية، أما المطلب الثاني فهو تقديم الخدمات المادية والعينية بدراسة وبحث الحالات التي تحتاج الى دعم مادي وعيني، المطلب الثالث: التعرّف على احتياجات الشباب وأحوالهم ومعالجة مشكلاتهم وحمايتهم من الانحرافات الأخلاقية وظروفهم المادية، وضرورة دعم ومساندة الشباب في الزواج «الشباب والفتيات»، وأنّ هذه المساندة لا تقتصر على الدعم المادي فقط، بل تتعداه لتشمل تبصير أفراد المجتمع بضرورة الزواج، والتعرّف على معاناتهم من وحدة واغتراب أو إعراض عن الزواج، وحلّ مشكلات العزوبية والعنوسة، بالمساهمة في تكاليف الزواج، والتوعية بعدم المغالاة في المهور والشكليات، وإقامة حفلات الزواج الجماعية، وتبني تشجيع رجال الأعمال على تقديم قروض ميسّرة للشباب لتأثيث عش الزوجية، وأكدت الدراسة أنّ الحاجات والمطالب التي يريدها المجتمع من القطاع الخيري الاهتمام بالمناشط الدعوية وإقامة الفعاليات التربوية لحماية المجتمع من التغريب والغلوّ والتطرف والإنحراف. وتعريف أفراد المجتمع بمجالات النشاط الخيري وكسب ثقتهم وتفعيل دورهم في العمل التطوعي، والعناية بتدريب الشباب على الأعمال المفيدة والمهن المختلفة، لفتح أبواب الرزق أمامهم، وتطوير العمل، وحماية المجتمع من تفشي المنكرات، والعمل على المساهمة مع الجهزة المعنية في إزالة هذة المنكرات، وضرورة أن تعتني الهيئات والجمعيات الخيرية بالمرضى والمعوقين وأسر السجناء والعمل على تخفيف معاناتهم والوصول الى القرى، لما فيها من محتاجين ومعوزين، وعدم الإقتصار على العمل في المدن الكبرى، ومعالجة مشكلات التسوّل، حفاظاً على المجتمع وترابطه، وإقامة مراكز خدمات لحلّ المشلات الأسرية والإجتماعية، واصلاح ذات البين، والشفاعة لدى الغير.

ومن أول الأولويات تحديد ما تريد المؤسسات الخيرية القيام به، والتخصّص فيه لما لذلك من تحقيق التركيز والاهتمام والإبداع، من خلال دراسة بيئة هذة المؤسسات الداخلية والخارجية ولمعرفة مواطن القوة والضعف داخل هذة المؤسسات وتحديد الفرص والتهديدات المحيطة بهذة المؤسسات وأنّ قوة العمل الخيري تأتي من داخله، فلا يمكن أن تكون مؤسسة قوية في مخرجاتها الا اذا كانت قوية في هيكلها الإداري والتنظيمي، وأنها مبنية على أسس مهنية وتنظيمية وموارد وأنظمة فعّالة.

انّ احدى مشكلات العمل الخيري أنّ الكثير من المسؤولين فيه لا يرون أنه في حاجة لنظام أو إجراءات أو مهارات أو تدريب، فيستمرّ في التأخر والتأثر بنفسيات وانطباعات القائمين عليه، والتي تؤدّي الى تأخره وتأخر أنظمته والعاملين فيه، حتى يصبح عديم التفاعل، والتواصل مع احتياجات المستفدين منه سواء كانوا عاملين أو محتاجين.

المستفيد من خدمة المؤسسات الخيرية هو الأساس، ويجب أن تعلم الجمعيات الخيرية ذلك، ولو تمعنّا في نجاح المؤسسات العالمية الخاصة منها والعامة، الربحية وغير الربحية لوجدنا أنّ سرّ نجاحها يكمن في تطوير الإجراءات وتسهيليها للإسراع في عملية الأداء والإنجاز.

الدولة هي المستفيدة من هذة الجمعيات الخيرية في مكافحة الجهل والفقر والجريمة من خلال توعية ودعوة ومساعدة المحتاجين لتخفيف الحمل عنها، لذلك قامت الدول المتقدّمة بتيسير وتسهيل عمل المؤسسات الخيرية وتنظيمها ودعمها من خلال التسهيلات التي تقدّمها لها من إعفائها من الضرائب، وإعفاء من يساعدها من مؤسسات تجارية من الضرائب بقدر دعمها لهذة المؤسسات والعمل على تطويرها وتأهيل منسوبيها، وتفريغ الطاقات الماهرة للمساهمة في تقديم خدمات مميّزة ومثمرة، وذلك لأنها أدركت أنها لا يمكنها تغطية الاحتياجات الاجتماعية الا من خلال تفعيل مجتمعاتها لخدمتها، وتيسير ذلك لها.

انّ تواصل المؤسسات الخيرية مع المجتمع مطلب شرعي وضرورة اجتماعية، وانّ العمل الخيري رغم وجود بعض الثغرات فيه، وعدم قدرته على الوفاء بالاحتياجات القائمة، قد بلغ في العقد الأخير انتشاراً كبيراً، ومستوى عالياً من الشمولية والعموم، والتخطيط والتنظيم وتلمّس الحاجات ودراسة المناطق والجهات المستهدفة، وتوسع ليصل الى الكثير من بلاد المسلمين والمسيحيين والأقليات، وحقق نتائج ملموسة في مجالات الإغاثة والإعانة لجميع المذاهب والأديان في العالم.

أرى من الضرورة التواصل والتكافل بين أرجاء المجتمع، وهذا ما تقوم به المؤسسات الخيرية وانّ التكافل والتواصل الاجتماعي ليس تشريعاً مفروضاً على القادرين، بل هو ثمرة طبيعية ونتيجة تلقائية وأثر إيجابي للروابط الدينية، التي يتميّز بها افراد المجتمع، وهو نتيجة طبيعية للمشاعر التي يكنها أفراد المجتمع بعضهم لبعض.

واطرح إمكانية تقديم القطاع الخيري حلولاً عملية لجميع فئات المجتمع خاصة في المجال الطبي، هذا المجال الحيوي جداً بالنسبة للمحتاجين، فغالباً ما يأتي المريض وهو في أشدّ الحاجة الى العلاج والدواء، فهم في حالة الاضطرار والاكراه بسبب ضغط وإلحاح الحاجة مما يسهّل التأثير عليهم، وانّ الفقير قد يفقد بعض أو كلّ ما يملك لحاجته الى العلاج من المرض، وعندما تعجز الموارد الموجهة الى القطاع الصحي عن تلبية حاجات الناس من الخدمات الطبية فلا يستطيع القطاع الخاص أن يوفر احتياجات الناس الطبية؟ هذا القطاع يريد الربح ولأنّ المستثمرين فيه يريدون تشغيل أموالهم، ولذلك يأتي دور القطاع الخيري بمحاولة المساهمة في طرح حلول عملية لعلاج المحتاجين خاصة أن هذا القطاع يتميز بثقة أفراد المجتمع ولهذا يسهل عليه الحصول على تمويل المشروعات الخيرية الطبية، كما أنه يستطيع أن يقدم الخدمات العلاجية بمستوى جيد من الكفاءة والجودة، لأنّ هدفه انساني بحت وأنه يريد تقديم الخدمة لمريض محتاج بدون أي ربح أو عائد.

ان القطاع الخيري هو أفضل من يساعد القطاع الحكومي في توفير هذة الخدمات الانسانية الضرورية بكفاءة فنية وإقتصادية، وذلك لأنه قطاع لا يريد الربح كما هو في القطاع الصحي، كما يهدف الى توفير نوعية من الخدمات الصحية الجيدة بعيداً عن الروتين والبيروقراطية.

* رئيس هيئة حوار الأديان
باحث في الشؤون السياسية والإقتصادية والدينية

غسان كنفاني حوّل المأساة الفلسطينية أدباً حقيقياً

■ عباس الجمعة*

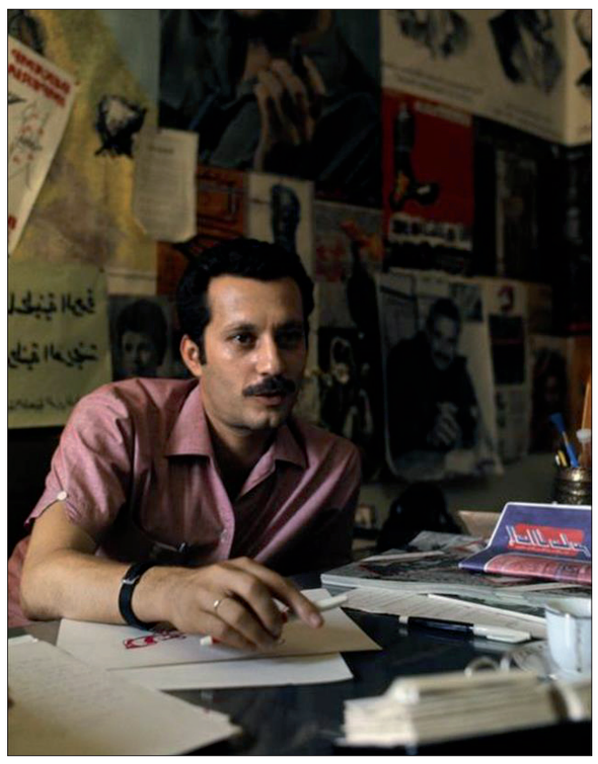

من المستحيل أن تقرأ عن المناضل غسان كنفاني، ثم لا تفكّر بفلسطين، ولا تفكّر بحريتك الشخصية، وبتحرير بلدك، وتحرير عقلك، حيث شكل نموذجاً من الإبداع المكتنز بالرؤى الحداثية لأدباء وشعراء جادّين، شغوفاً بالحياة وبالتمرّد على الموت وصانعيه، فكان غسان اللاجئ الفلسطيني الشاب، سلاحه الكتابة، لا يتعب، يكتب ويكتب ويكتب، ويتنقل من دفتر الرواية إلى دفتر الدراسة إلى دفتر رسائل الغرام إلى الصحيفة، والتحليلات السياسية والخاطرات الأدبية.

فكان المناضل غسان كنفاني الناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية ومسؤول إعلامها المركزي، وكان الكاتب والصحافي، والروائي، يمنح الكتابة ساعات يومه ووهج قلبه وخلاصة عقله، متألقاً، متأنقاً، جميلاً، طيباً، ينبض بصرخات المعذبين والعشاق في آن واحد، انخرط بالثورة الفلسطينية وتحديداً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بكلّ وجدانه وحيويته وجرأته وصدقه وقلبه الجريح.

نعم غسان المثقف والباحث والكاتب والصحافي والمنظّم والمناضل أعطى الجبهة الشعبية كلّ وقته فأحبه رفيق دربه الحكيم الشهيد جورج حبش، لأنه اعتبره وحده، أيقونات غامضة من سحر يأخذ قلوب الشباب قبل عقولهم، حين كانت القلوب والعقول تهجس بالتحرير والثورة والوحدة والتغيير التقدّمي واليسار وتحدّي العالم.

غسان كنفاني هو أول مَن عرّف العرب بشعراء المقاومة في فلسطين، وأول مَن حوّل المأساة الفلسطينية إلى أدب حقيقي، بلا نواح ولا عنتريات، وأوّل من قدّم الفلسطيني كعربيٍ متصل لا منفصل، مبدعاً ومناضلاً وملتاعاً بالحب ومنتجاً وأنيقاً.

من هنا كانت صرخة غسان كنفاني التي أيقظت الفلسطيني لكي يقرع جدران الخزّان، كان المشرّدون الفلسطينيون الهاربون من جحيم المخيمات والفقر والتهميش يتسلّلون إلى ديار الهجرة النفطية، بحثاً عن مستقبل فردي، مفهوم، بالطبع، أنّ الإنسان بغريزة البقاء اللعينة قد يقبل أيّ مذلّة، وقد يتحمّل أيّ هوان، وأيّ أذى، مهما يكن، لكي يبقى على قيد الحياة، لكن اللامفهوم، اللامنطقي، اللاغريزي، أن يقبل الإنسان الموت، مجاناً، فلا يصرخ طالباً النجدة.

هكذا رأى غسان كنفاني شعبه، مشرّداً متسللاً فاقداً حتى للدفاع الغريزي عن حقه في الحياة، فأطلق صرخة الثورة، اقرعوا جدران الخزّان، ولا توجد صرخة أعمق وأصدق وأكثر إيلاماً وتحفيزاً منها، أيقظت مشاعر الكرامة الإنسانية لدى جيل كامل.

في السبعينيات وتحديداً في شهر اذار من عام 1972، وعند انتمائي للثورة الفلسطينية شبلاً، كنت اقرأ جريدة المحرّر، فقرأت لغسان كنفاني مقالاً عن ألم ووجع الفلسطيني، فقد كان طاقة لا توصف وكان يستغلّ كلّ لحظة من وقته دون كلل، حيث رأيت في مقاله ذاك انه أكثر حرية وتلفتاً وانفلاتاً مما هو في مجالاته الإبداعية المتعدّدة الأخرى.

في بيروت كان الشاهد والشهيد، كانت بيروت المجال الأرحب حيث لفت نشاطه ومقالاته الأنظار إليه كصحافي وكاتب ومفكر وناشط سياسي وثوري، حيث حوّل مجلة «الهدف» منبراً للإعلام الثوري ينادي بالوحدة الوطنية والعمل الثوري والفدائي الفلسطيني، ورفع غسان شعار (كلّ الحقيقة للجماهير) واختاره عنواناً للمجلة، وقد كتب غسان في العديد من أبواب المجلة إضافة إلى كتابة الافتتاحية.

وغسان أول شهداء الكلمة الفلسطينية المقاتلة، في تاريخ الثورة الفلسطينية المعاصرة، عاش مقاتلاً بعيداً عن أرضه، من أجل أرضه المستباحة، يقاتل بكلّ دمائه النبيلة، وكان يعرف أنّ التراجع موت، وأنّ الفرار قدر الكاذبين، وقد تميّز بتفكيره الثوري ونضاله في سبيل وطنه المغتصب، وتجسيد مأساة شعبه بأعمال إبداعية متنوّعة، صوّر فيها محنته وتشرّده وصموده، قضى غسان كنفاني حياته مناضلاً، وصحافياً، وكاتباً، وسياسياً، وروائياً، وقاصاً، وكاتباً مسرحياً، وناقداً أدبياً، وباحثاً، ودارساً، وفناناً تشكيلياً، على درجة عالية من الوعي بوسائله الفنية.

ومثلما كانت حياة غسان شاهدة على وحشية وهمجية الاحتلال الصهيوني الإحلالي، كان استشهاده في شهر حزيران من عام 1972 على أيدي جهاز المخابرات الصهيونية (الموساد) الشاهد الحي على أنّ (الكلمة الرصاصة... الكلمة المقاتلة) أمضى على الأعداء من السلاح.

عبّر غسان كنفاني في كل ما أنتجه عن معاناته ومعاناة شعبنا الفلسطيني، إلى جانب إبداعه الصحافي والقصصي والروائي، ودوره السياسي، فناناً تشكيلياً مبدعاً أيضاً، حيث قدّم جانباً هاماً من رحلة عطائه، جانب فسح له المجال واسعاً لتفريغ ما حمل من فكر ورؤية، على سطوح بيضاء لتكون لوحات يحاكي من خلالها الآخرين ولتبقى في ذاكرة الأجيال.

ختاماً: انّ ذكرى غسان كنفاني تأتي في مرحلة من أشدّ المراحل خطورة، حيث تشتدّ الهجمة الامبريالية الصهيونية الإرهابية على المنطقة، من خلال ارتكاب المجازر الإجرامية التي لا تقرّها الأديان السماوية ولا تبيحها الشرائع الإنسانية ولا تقبلها المواثيق الدولية لحقوق الإنسان لأنّ فيها أزهاقاً للروح البشرية استخدام الأحصنة اثناء قطع الرؤوس والموت غرقاً في أقفاص الحديد ووضع قنبلة في العنق وغير ذلك من الأساليب المبتكرة البشعة الجديدة التي هي حلقة من حلقات الإرهاب الأسود المنفلت من عقاله والمتنقل والتي لم تقلّ أهمية عن الإرهاب الصهيوني، بينما يقرع الخزّان، وقد يثور على الانقسام الفلسطيني، وعلى تصفية القضية الفلسطينية، وعلى الكمبرادور، بشقيه، المدني والملتحي، لذلك كله، نقول في ذكراك، كفى انقساماً فلسطينياً، فلنعد الى خيار شهداء الموقف والكلمة، الى الشهداء غسان كنفاني ومحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وفدوى طوقان، الى مواقف القادة العظام الرئيس الرمز ياسر عرفات وابو العباس والحكيم وابو علي مصطفى وعمر القاسم وسمير غوشة وسليمان النجاب وكل القادة العظماء الذين شكلوا لفلسطين وشعبها منارة مضيئة، ونحن نتطلع اليوم الى كلّ القوى الحية في المجتمعات العربية للوحدة في مواجهة الأفكار التكفيرية والقوى الإرهابية، وكلّ من يساندها ويوفّر لها الرعاية والدعم، واعادة البوصلة نحو فلسطين القضية المركزية للأمة العربية.

* كاتب سياسي